العلاقات الدبلوماسية العباسية البيزنطية
في العصر العباسي الاول

موفق سالم الجوادي
ماجستير في التاريخ الاسلامي
د. عبد المنعم رشاد
جامعة الموصل ـ كلية الآداب
قسم التاريخ

لاشك أن العلاقات العربية البيزنطية تعد من موضوعات البحث التاريخي الحيوية والمهمة في تاريخ امتنا المجيدة. وكان لهذه العلاقات طابعها الخاص والمميز في كل مرحلة من مراحل تاريخ الدولة العربية الاسلامية. وفي العصر العباسي الأول، وعلى الرغم من استمرار العلاقات الحربية، إلا أن العلاقات السياسية، أخذت شكلاً اكثر إتساعاً من ذي قبل، ولاسيما في مجال العلاقات الدبلوماسية وتبادل الأسرى بين الطرفين.

ولا اعتقد أن استخدام كلمة ((دبلوماسية)) للدلالة على مجريات العلاقات السياسية بين الدولتين يشكل وضعاً للكلمة في غير موضعها. فاذا كانت هذه الكلمة تشير الى ادارة علاقات دولة ما مع دولة أو دول أخرى. فان هذا ينطبق على ما كان سائداً بين الدولة العباسية والامبراطورية البيزنطية في تلك المدة، على الأقل من ناحية الشكل العام لهذه العلاقات وأساليبها.

وقد استخدمت مصادرنا كلمتي ((سفارة)) أو ((وفادة)) للاشارة الى اساليب ممارسة العلاقات الخارجية للدولة. ولغوياً فان ((السفير: هو الرسول والمصلح بين القوم والجمع سفراء.))[1] ويقال أيضاً: ((وفد فلان على الأمير أي ورد رسولاً، فهو وافد... وأوفدته أنا الى الأمير: أرسلته.))[2] أما المفهوم الاصطلاحي لأساليب الاتصال الخارجي هذه فتعني: ((عملية استمرار الاتصالات الخارجية على اختلاف أنواعها وأشكالها ودرجاتها تؤدى بواسطة السفراء والرسل والمبعوثين ويكونون وكلاء وممثلين للمرسل لدى الملك أو الرئيس المرسل اليه في دولة أخرى في أمر من الأمور المعلقة بينهما وينتدب لهذه المهمة من يصلح لها، ويكون نائباً أو وكيلاً لمرسله، في كل ما ينسب اليه في توقيع الاتفاقات والمعاهدات أو إنهاء حالة الحرب.))[3].

وكان العمل في ميدان الدبلوماسية، لاسيما في العصور الوسطى، يعتمد أساساً على المزايا الشخصية للافراد العاملين فيه. مما ترتب عليه الاهتمام الكبير والدقة في اختيار القائمين بمهام العمل الدبلوماسي، وبالذات السفراء والرسل منهم. ويبدو هذا الأمر طبيعياً في وقت لم يكن فيه ثمة معاهد متخصصة لإعداد العاملين في الدبلوماسية. ومن خلال ماوصل الينا من نصوص، يبدو انه لا يوجد أفراد دائميون يتولون هذه المهام بصورة مستمرة. أو بالأحرى لم يرد ما يشير الى وجود ديوان يضم أفراداً يشكلون هيأة دبلوماسية دائمة، بل أن الأمر بقي خاضعاً لمقتضيات الحاجة الآنية، التي تفرض اختيار شخص ما ليقوم بمهمة المفاوض أو السفير الى الجانب البيزنطي. وقد أجمل ابن الفراء في كتابه رسل الملوك ـ وهو أقرب المصادر الى مدة بحثنا هذا المعنية بالموضوع ـ أبرز الصفات التي يجب أن تتوفر فيمن يجري اختياره لهذه المهام، وهي:

١ـ صفات ومزايا تتعلق بالاداء الكلامي والصوتي، فلابد أن يكون واضح الصوت حسن الاداء والبيان، قادراً على التعبير بدقة

عما يريد قوله، مدركاً لطبيعة مهمته بشكل دقيق[٤].

٢- مزايا وصفات تتعلق بالمظهر الخارجي، كأن يكون السفير رجلاً لا أمرأة، مقبول الشكل، وأن لا يكون ضئيلاً تقتحمه العين وتتجاوزه بسهولة، بل أن يكون مهاباً في نفوس الآخرين[٥].

٣- مزايا أخرى تتعلق بالقدرات الشخصية، كأن يكون جريئاً مقداماً وذا رزانة ووقار، يعرف متى ومع من يشتد أو يلين[٦].

٤- ولابد للسفير أن يكون حليماً عاقلاً، ضابطاً لانفعالاته، يتسم بالصبر اذا ما طال به المقام في البلد الموفد اليه لحين انجاز مهمته، وأن لا يكون راغباً في إنهاء مهمته بسرعة لان ذلك يفوت عليه الفرص المناسبة لتحقيق أفضل النتائج[٧].

٥- وعلى السفير أن يكون واثقاً بنفسه، مطمئناً الى نجاح مهمته، يقبل على عمله بهمة ونشاط عاليين، بعيداً عن اليأس والقنوط، لان ذلك يترك أثره على قدرته في انجاز المهمة[٨].

٦- ولابد أن يكون السفير مشهوداً له بالفضل والعلم والدهاء، واسع المدارك، له مكانته الاجتماعية المعروفة. ولابد له من معرفة بأحوال البلاد الموفد اليها سياسياً واقتصادياً وغير ذلك[٩].

٧- وعلى السفير أن يكون مدركاً لطبيعة المهمة المناط به انجازها، لا يتعداها الى غيرها. وعليه أن يتصرف ويجتهد في ايجاد الأساليب والحجج لتحقيق الغرض من ارساله[١٠].

٨- ومن الأمور الضرورية، مراعاة الأحوال المالية للسفراء والرسل، بتلبية احتياجاتهم في هذا الجانب، إن كانوا بحاجة الى ذلك. بما لا يترك المجال لاغرائهم من الجانب المرسل اليه، لأن ذلك إذا ما تحقق يفشل المهمة، ولاسيما أن الرسول لا أمين عليه[١١].

وكان الخليفة يقوم بنفسه باختيار رسله وسفرائه من مرشحين يقوم ديوان الرسائل بترشيحهم ويمهد لاختيارهم. ويعد هذا الديوان أيضاً الكتب والرسائل التي يحملها هؤلاء الرسل معهم[١٢]. واذا كان يجري اختيار الرسل، في بعض الأحيان، من كبار موظفي قصر الخلافة مثل عمارة بن حمزة[١٣]. بيد أنهم في الغالب لا يكونون كذلك، بل يتم اختيارهم وفقاً للشروط السابقة، ومن الطبيعي جداً أن لا يكون هناك ممثلون دائمون أو سفراء مقيمون للدولة العباسية في الدول الأخرى أو بالعكس. فهذا التطور في الدبلوماسية لم ينشأ إلا في العصور الحديثة. دفع إليه تطور العلاقات الدولية وتشابك المصالح وتداخلها اكثر من ذي قبل.

أما في الجانب البيزنطي، فان أحد كبار الموظفين كان يدعى سكرتير الدولة للشؤون الخارجية[١٤] ويبدو أن مهمته كانت مشابهة لمهمة ديوان الرسائل في الدولة العباسية. فعليه تهيئة واعداد ما يتطلبه العمل الدبلوماسي للامبراطورية. بيد أنه لم تتوفر لدينا النصوص التي تشير الى الاسس التي يتم بموجبها اختيار سفرائهم ورسلهم، وأغلب الظن أنها لا تختلف كثيراً عن تلك الشروط والأسس التي يجب توفرها في السفراء القادمين اليهم، من حيث قوة الشخصية والثقة العالية بالنفس وسعة المعرفة والاطلاع ورجاحة العقل. ولا أدل على ذلك من اعجاب بعض مصادرنا بدهاء وعلم بعض سفراء القسطنطينية[١٥]. ويظهر أن أغلب رسل الامبراطورية كانوا من كبار موظفي الدولة والبلاط، مثل البطارقة، والبطريق هو القائد العسكري وأحد حكام البنود — الأقاليم — البيزنطية، فمنهم كان معظم السفراء والرسل[١٦]. أو من كبار موظفي البلاط، مثل سفارة يوحنا النحوي التي قدمت الى بغداد في مطلع حكم ثيوفيل، والتي أسفر عنها عدد من الأساطير[١٧].

أما بخصوص معاملة السفير الوافد الى الدولة العباسية، منذ وصوله أول مسلحة — كجهة رسمية — في منطقة التخوم، وحتى خروجه الى بلاده. فان لذلك أصولاً تحكمها جملة من الضوابط والشروط، وربما كانت هذه متشددة بعض الشيء مع السفارات القادمة من القسطنطينية بحكم أن الطابع العام المميز للعلاقات بين الدولتين هو الطابع الحربي. ومن المحتم أن يرافق ذلك النظر بعين الشك والريبة الى هؤلاء القادمين من الأراضي البيزنطية، حتى يتم التأكد من صفتهم الرسمية، خشية أن يكونوا جواسيساً. فوضع الفقهاء هذه الضوابط والشروط. إذ رأى أبو يوسف: أن القادم إذا إدعى أنه رسول من ملكة الى الخليفة، وأبرز بذلك كتاباً، وأدعى أن ما معه هدية للخليفة، فيجب أن يصدق لان ذلك كان معروفاً بين الدولتين[١٨]. وعند عودة هذا الرسول فانه يجب أن لا يسمح له بان يخرج معه من السلاح

والدواب والرقيق ــ من الاسرى ــ وان اشترى ذلك يجب عليه رده واستعادة ثمنه من البائع. كما لا يجوز له ابدال سلاحه بما هو أفضل منه[19].

اما الشيباني فقد وضع تفاصيل أكثر دقة في مجال التعامل مع السفراء والرسل، إذ قرر أنه:

١- لا يقبل من السفير ادعاؤه بالسفارة، إلا بابراز مايثبت ذلك رسمياً، عندها يمنح الأمان، وهو يمنح هناك بـغالب الظن[20]. تأكيداً لمنطق الشك والريبة تجاهه.

٢- من حق الخليفة احتجاز السفير الوافد اليه، لاسيما إذا كان الخليفة مع جيشه في بلد السفير نفسه. خشية اطلاع الأخير على نقاط ضعف الجيش أو بعض أسراره فيفيد بها بلاده. ويستمر حجز السفير حتى زوال خطره. وهو في ذلك آمن على حياته[21]. وهو ما فعله المعتصم، حين احتجز رسول الامبراطور الذي قدم اليه قبيل بدء حصار عمورية، ثم أطلق بعد فتح المدينة[22]. وان من حق الخليفة عدم اطلاق السفير حتى إذا وعدهم بعدم إفشاء أية أسرار، إذ لا يصدق في ذلك، على أنه لا يجوز تقييده بالاغلال[23]. كما أن للخليفة أن يأخذه معه إذا كان عائداً من هجومه الى الاراضي الاسلامية، ولا يجوز اطلاقه حتى يبلغ الخليفة مأمنه، حتى إذا استوجب الأمر إدخال هذا السفير الى الأراضي الاسلامية، فاذا رفض الدخول أكره عليه[24].

٣- وعند أطلاق السفير، لا سيما إذا كان قد أدخل الأراضي الاسلامية، فانه يتعين على الخليفة تجهيزه بالمال اللازم لسفره، إذا طلب السفير ذلك، بشرط أن يكون قد أجبر على الدخول، فاذا تم ذلك باختياره، فانه لا يمنح مالاً لعودته[25].

٤- واذا خشي السفير من اللصوص وقطاع الطرق، فانه يتعين على الخليفة أن يرفقه بقوة تحميه، توصله الى مكان يأمن له، ويتقي به خطر هؤلاء[26].

أما عن أصول البروتوكول التي سادت هذه المدة، فان المصادر لم تقدم لنا معلومات وافية بهذا الخصوص، بيد أنه وردت إشارات متفرقة تفيد في هذا الأمر. من ذلك رواية تضمنت أن الوزير هو الذي يقوم أولاً باستقبال السفراء، حيث يتم إجراء المفاوضات ((المؤامرات)) بين الطرفين. ولابد أن كان هذا يعني وضع القواعد الأساسية لما سيطرحه السفير على الخليفة، إذ لابد من اتفاق أولي بهذا الصدد. يعقب ذلك إستقبال الخليفة للسفير، حتى يتم إتخاذ القرارات النهائية بشأن ما جاء من أجله السفير. وعادة كان الوزير يستغل فرصة اجتماعه مع السفير لاستحصال بعض المعلومات عن أحوال بلاده من خلال توجيه بعض الاسئلة اليه[27].

إن المفاوضات بين الوزير العباسي والسفير البيزنطي، قد تستغرق أشهراً عدة، ففي أعقاب فتح عمورية أرسل ثيوفل الى المعتصم سفارة إستغرقت مفاوضاتها مع الوزير العباسي ستة أشهر، الى أن أصبح بالأمكان وضع القواعد الأساسية لما سيطرحه السفير على الخليفة المعتصم[28]. وعندما يتم ترتيب اللقاء بين الخليفة والسفير، كان هذا يتخذ صيغاً معينة مثل: عمل إستعراض للجيش العباسي يبدأ من مقر إقامة السفير الى قصر الخليفة. وفي القصر، يتخذ الخليفة مجلساً فخماً محاطاً بكبار قادته وموظفيه، كما يرتدي بقية موظفي القصر الزي الرسمي متخذين أماكنهم المخصصة لهم. وإذا كان هذا الأمر جزءاً من أصول البروتوكول، فان له أغراضاً أخرى سنأتي عليها. وفي أول لقاء يقدم السفير هدايا الامبراطور الى الخليفة، ثم تجري المجاملات بينهما، وقد يحظى بعض السفراء بتكريم بالغ من الخليفة إذا ما نال اعجابه[29]. وتتضمن أصول البروتوكول، القيام بجولة في العاصمة، يطلع السفراء فيها على معالم المدينة ومدى فخامتها وأبهتها وما تتمتع به من خيرات[30].

أما عن أصول البروتوكول في الجانب البيزنطي، فيبدو من التقارير التي قدمتها مصادرنا عن سفارات عباسية الى بيزنطية، أنها لا تختلف كثيراً عن تلك التي شاهدناها في الدولة العباسية، وربما كان هذا سائداً في العصور الوسطى. على أية حال، فان أبرز ماجرى عليه البروتوكول البيزنطي هو:

تقوم جهات معينة باستقبال السفارة القادمة الى بيزنطة، قبل ترتيب لقائها مع الامبراطور. فقد روى نصر بن الأزهر أنه التقى مع بيترو فانس قبل ان يلتقي الامبراطور[31]. والهدف من ذلك على الأغلب تسوية أمر اللقاء وما يجب أن يطرح فيه. على أنه قبل أن يصل السفير الى بهو الامبراطوار، فانه يمر بسلسلة من

الخدع[٣٢]. هدفها كشف مدى قوة السفير أو ضعفه، فضلاً عن اغراض أخرى سنأتي عليها. ثم يدخل السفير بهو الامبراطور، وهو بهو واسع في العادة، يبدو فيه عرش الامبراطور فخماً جداً وعالياً بعض الشيء. حيث يجري تقديم الهدايا وما يستوجبه الأمر من مجاملات أيضاً. ويحضر اللقاء عدد من المترجمين يقومون بالترجمة بين السفير والامبراطور. وقد أدرك بعض السفراء خطورة دور هؤلاء، لاسيما ما يتعلق باضافة بعض العبارات الى ما يريد السفير قوله، أو سوء تفسيرهم لقوله هذا[٣٣].

وفي اللقاء بين السفير والامبراطوار يجري الاتفاق النهائي بشأن الغرض من السفارة. ويعقب ذلك قيام الطرفين باداء القسم على الالتزام بما أتفق عليه. وهنا إنتبه بعض السفراء الى أن الامبراطوار لا يقوم بنفسه باداء القسم، بل هناك من ينوب عنه في ادائه، مما دفعهم الى التأكد من أن هذا القَسم ملزم للامبراطور نفسه[٣٤]. ويبدو أنه كان يتم تجريد السفير من سلاحه عند دخوله لمقابلة الامبراطور. إلا أن بعض السفراء اصر على عدم تنفيذ هذا البند من قواعد البروتوكول[٣٥]. وفي بعض الأحيان يعتري المفاوضات بعض التأخير والتأجيل لسبب أو لآخر، مما يطيل مدة إقامة السفير في العاصمة البيزنطية[٣٦]. وثمة جولات أخرى يقوم بها السفير في العاصمة، وقد يرافقه الامبراطور نفسه في هذه الجولة[٣٧]. وهناك أحياناً فقرة خاصة بزيارة السفراء لمعسكرات الأسرى المسلمين في القسطنطينية للاطلاع على أوضاعهم والاستفسار منهم عن أحوالهم[٣٨].

أما بخصوص أساليب الدبلوماسية المتبعة من كلا الطرفين، فقد وردت إشارات متناثرة تكشف عن بعض جوانب هذا الموضوع. ففي الجانب العباسي؛ كان يتم عرض الجيش أمام السفير البيزنطي، الغرض منه إظهار ضخامة هذا الجيش وقدراته الكبيرة. وأيضاً إظهار فخامة الحاشية وما يحيط بالخليفة من قادة وموظفين[٣٩]. وكان القصد من هذه الأمور ان تترك إنطباعاً في نفس السفير عن مدى قوة الدولة بما يجعل المفاوض في موقع القوة، وربما قصد منها أيضاً ادخال الضعف والوهن في نفس المفاوض البيزنطي، وهو أمر ترك أثره في المكاسب التي يحققها أي من الطرفين في المفاوضات. ومن ناحية أخرى، فان السفير العباسي الى القسطنطينية كان يتم تهيئته بحيث يترك إنطباعاً بالمهابة في نفوس الجانب البيزنطي، وهو أمر يعكس قوة واقتدار الدولة العباسية، بما يمكنه من المفاوضة من مركز قوة حتى في قناعة الجانب البيزنطي نفسه. ويعزز موقف السفير ما يحمله من هدايا ثمينة تعبر عن الاقتدار الاقتصادي للدولة. وبهذه الوسائل نال أحد سفراء المعتصم مكانة كبيرة في نفس الامبراطور، إذ كان موكبه مهاباً للغاية[٤٠].

أما الدبلوماسية البيزنطية، فكانت هي الأخرى لها أساليبها الخاصة لتحقيق ما تصبو اليه من أهداف، من ذلك بعض الخدع الميكانيكية التي قد تنطلي على بعض السفراء، وقد قدم لنا ابن الفقيه رواية مفصلة جاء فيها:

((قال عمارة بن حمزة أحد السفراء العباسيين

فانتهيت الى مكان يحجب منه الرجل على مسافة بعيدة. فجلست حتى أتى الاذن فسرت الى مكان آخر فجلست حتى أتى الاذن ثلث مرات ثم وصلت الى داره (الامبراطور) فادخلت داراً واذا على طريقي أسدان عن جنبي الطريق وطريقي عليهما لا أجد من ذلك بداً فقلت لابد من الموت فلن أموت عاجزاً فحملت نفسي فلما صرت بينهما سكنا فجزت ودخلت داراً أخرى وإذا سيفان يختلفان على طريقي فحزرت أنه لو مرَ بينهما ذبابة لقطعاها فقلت الذي سلمني من الأسدين يسلمني من السيفين فاستخرت الله ومضيت فلما صرت بينهما سكنا ثم دخلت داراً ثالثة وفيها الملك فلما صرت الى بهوه إذا هو في بهو فسيح أكاد أن لا أبصره لبعد مسافة البصر بيني وبينه فمشيت حتى انتهيت الى قدر ثلثه فغشيتني سحابة حمراء لم أبصر شيئاً فجلس مكانة ساعة ثم تجلت عني فقمت فمشيت فلما بلغت نحو الثلثين غشيتني سحابة خضراء فغشى بصري منها فجلست حتى تجلت ثم قمت فمشيت فانتهيت الى الملك فسلمت عليه...))[٤١].

وقد قصد من هذه الأساليب إدخال الهيبة في نفس السفير، مما يجعل موقفه ضعيفاً في المفاوضات، وربما هذا ما تحقق بالفعل. إذ يفهم من بقية رواية ابن الفقيه أن هذا السفير فشل في تحقيق مهمته[٤٢].

أما البذخ الواسع في البلاط فقد كان جزءاً من أساليب

الدبلوماسية البيزنطية، بهدف إعطاء صيغة المهابة والقوة للامبراطورية، فتحدثت بعض تقارير السفارات عن مدى فخامة بلاط الامبراطور[٤٣]. كما أن السفير البيزنطي الى الدولة العباسية كان يقدم هداياه لكل من يتصل به مظهراً ثراء وبذخ امبراطوريته وسخاءها. وهذا هو ما فعله يوحنا النحوي في سفاراته ـ المشار اليها سابقاً ـ الى بغداد حين أرسله ثيوفيل لاعلام الخلافة العباسية باعتلائه العرش[٤٤].

لقد تطرقت مصادرنا الى العديد من السفارات المتبادلة بين الدولتين، ومن المحتم أن هناك الكثير مما لم ترد الاشارة حوله. فموضوع هذه السفارات ربما لم يكن ذا قيمة لدى مؤرخينا، حتى لم تحفَ بما تستحقه من اهتمام،

فجاءت أخبارها مختصرة موجزة، بعضها تضمن أخطاء تاريخية واضحة، وعلى أية حال فانه مما ذكر من سفارات يمكن أن نحدد أهدافها وغاياتها بالشكل الآتي:

١ـ إنهاء حالة الحرب وعقد الصلح بين الدولتين، وكان خط سير هذه السفارات قادماً من القسطنطينية الى العباسيين، وهي كثيرة، في حين أن الدولة العباسية كانت تكتفي بقبول أو رفض عروض هذه السفارات[٤٥].

٢ـ وكانت هناك سفارات اخرى لفداء الاسرى وتبادلهم[٤٦]. وقد احتل موضوع الاسرى مكاناً واسعاً في العلاقات بين الدولتين في هذه المدة.

٣ـ وكانت هناك سفارات مهمتها الابلاغ بنقض صلح أو إنهاء إتفاق كان قد جرى بين الطرفين؛ وهو أمر أقدم عليه البيزنطيون اكثر من مرة[٤٧].

٤ـ وكانت مهمة بعض السفارات التهديد بشن الحرب على الطرف الآخر، لهذا السبب أو ذاك[٤٨].

٥ـ وكان من بين الأهداف الأخرى، تسهيل وترويج العلاقات التجارية بين الطرفين[٤٩]. مع أن مثل هذه السفارات لم تلق نجاحاً كبيراً.

٦ـ كما كانت هناك سفارات خاصة لاغراض علمية وثقافية مجردة، عملت على تعزيز العلاقات الثقافية بين البلدين[٥٠].

٧ـ ومن الاغراض الاخرى لهذه السفارات، تقديم التهاني بتولي خليفة جديد أو امبراطور جديد لحكم بلاده، أو اعلام أحد الطرفين الطرف الآخر، بأن خليفة أو امبراطور قد تولى الحكم[٥١].

٨ـ وهناك سفارات اخرى، أرسلها بعض الخلفاء العباسيين تضمنت دعوة الامبراطور البيزنطي الى الاسلام. من ذلك رسالة هارون الرشيد الى الامبراطور البيزنطي[٥٢].

٩ـ وأخيراً هناك السفارات التي كانت تحمل الجزية البيزنطية الى بغداد، والتي فرضت اكثر من مرة على القسطنطينية، وكان لابد لهذه الجزية من سفارات تحملها الى بغداد[٥٣].

وهنا لابد من تقديم بعض الملاحظات عن طبيعة المراسلات التي كانت تجري بين عاهلي الدولتين. وان كان ما بين ايدينا من نصوص هذه الرسائل قليل جداً لا يمكن أن يشكل مادة متكاملة لفرض تحليلها، مع هذا يمكن أن تخرج منها بالملاحظات الآتية:

يبدو أن هذه الرسائل كانت تبدأ، ووفقاً لعرف ربما كان سائداً في تلك المدة، باسم المرسل اليه، ثم اسم المرسل، لهذا فان الخليفة المأمون وحين وردت اليه رسالة ثيوفيل بادئاً فيه اسمه، استنكر ذلك ورفض قراءة بقية الرسائل[٥٤].

فاضطر ثيوفيل لاعادة كتابة الرسالة وفقاً لاصول البروتوكول المتبع، مقدماً في الرسالة الثانية اسم الخليفة المأمون على إسمه. وهناك أيضاً رسالة نقفور الى الرشيد ناقضاً فيها الصلح بين الدولتين، فبدأ هذه الرسالة بنفسه أيضاً. بيد أن هذا الأمر لا يمكن أن يكون هو الحالة الاعتيادية. إذ أن هناك رسالة أخرى من نقفور الى الرشيد جاءت صيغة مقدمتها بالشكل الآتي: ((لعبد الله هارون أمير المؤمنين من نقفور ملك الروم))[٥٥].

كما تميزت هذه الرسائل بالاختصار الشديد، لا تتضمن أية استطرادات، بل أنها تشير الى الغاية فيها مباشرة، كما أنها واضحة في مدلولاتها، ليس فيها أي غموض. ومن هذه الرسائل، رسالة نقفور التي أشرنا اليها. ونصها:

((لعبد الله هارون أمير المؤمنين من نقفور ملك الروم
سلام عليكم، أما بعد أيها الملك، فان لي إليك

حاجة لا تضرك في دينك ولا دنياك، هينة يسيرة،

أن تهب لابني جارية من بنات أهل هرقلة، كنت قد خطبتها على ابني، فان رأيت أن تسعفني بحاجتي فعلت والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.))

إلا أنه في أحيان قليلة جداً تكون الرسالة مطولة، بحسب موضوعها والغرض منها، مثل الرسالة التي كتبها أبو الربيع محمد بن الليث للرشيد والتي تضمنت دعوة الامبراطور البيزنطي الى الاسلام[٥٦].

وتضمنت هذه الرسائل في بعض الأحيان اكثر من غاية واحدة، مثل تضمنها الدعوة الى الصلح وتوسيع العلاقات التجارية وتبادل الأسرى وحتى التهديد بالحرب، كل ذلك في رسالة واحدة، ومع هذا تكون موجزة وبليغة[٥٧].

وفي بعض الرسائل إمتزجت لغة الموادعة والسلام مع لغة التهديد والوعيد[٥٨]. أو أن يجري الأمر على إرسال رسالتين، تتضمن الأولى عرضاً للصلح والمهادنة في حين تتضمن الثانية التهديد، فاذا فشلت الرسالة الأولى في تحقيق الغاية منها، فلعل الثانية تفلح فيها[٥٩].

أما بخصوص المعاهدات التي جرى عقدها بين الطرفين، أو لعروض الخاصة بذلك، والتي قدمها الجانب البيزنطي، فهي قسمان:

الاول خاص بعقد الصلح بين الطرفين لانهاء حالة الحرب أو ايقافها مؤقتاً بهدنة لعدة سنوات، وقد جرى عقد عدة معاهدات من هذا النوع، بسبب إستمرار حالة القتال بين الطرفين.

أما القسم الثاني من هذه المعاهدات فهو خاص بفداء الأسرى أو تبادلهم. وبشكل عام فان نصوص هذه المعاهدات لم تصل الينا كاملة، لذا فانه لا يعرف أسلوبها أو صيغتها، وأن ما وصل الينا منها لا يمثل سوى. بعض من مضامينها، فنحن مازلنا نفتقر الى نصوص أو وثائق كاملة، الأمر الذي يشكل خسارة كبيرة في دراسة تاريخ العلاقات الدولية.

وفي عام ١٦٥هـ/ ٧٨١ - ٧٨٢ عقدت معاهدة للصلح بين الرشيد وايريني، تضمنت قيام الامبراطورية البيزنطية بدفع جزية سنوية للدولة العباسية، وتبادل الأسرى، وأيضاً هدنة أمدها ثلاث سنوات. فضلاً عن فقرات أخرى[٦٠]. كما أن السنوات الأخيرة من حكم ايريني شهدت عقد إتفاق آخر للصلح ومع الرشيد أيضاً، ومع أن بنوده لم تصل الينا، إلا أن استنتاجها قد جرى من سير الاحداث، إذ تضمن هذا الاتفاق أيضاً: تقديم البيزنطيين الجزية للعباسيين وتبادل الاسرى وهدنة للسلام بينهما[٦١] ومن الاتفاقيات التي شهدتها هذه المدة، الاتفاق الذي أعقب سقوط هرقلة، والذي تضمن أيضاً دفع الجزية للدولة العباسية، إضافة الى البنود الأخرى[٦٢] وتضاف الى هذه الاتفاقات مجموعة من عروض الصلح قدمها الجانب البيزنطي، غير أنها لم ترَ النور، لأنها لم تحضَ بموافقة الدولة العباسية. وهي لا تختلف في مضامينها عن الاتفاقيات والمعاهدات التي عقدت فعلاً. ومن خلال هذا العرض يمكن أن نخرج بنتيجة فحواها، ان كل هذه المعاهدات والاتفاقيات كانت تدور حول محاور أساسية هي:

١- تقديم البيزنطيين جزية سنوية لبغداد.
٢- تبادل الأسرى بين الطرفين.
٣- عقد هدنة للسلام بينهما

ويتضح من هذا أيضاً، أن كفة الدولة العباسية هي الراجحة فيها، وهو أمر لا شيء فيه. اكده ميزان القوى الذي كان في معظم الأحيان لصالح الجانب العباسي. الأمر الذي اضطر البيزنطيين عدة مرات الى تقديم مقترحات وعروض للصلح توقياً لخطر الجيوش العباسية.

أما ما يتعلق بالنقطة الاولى، وهي الجزية البيزنطية، فانها لا تمثل حالة كسب مادي - يعول عليه - للدولة العباسية، فهي مهما كان مقدارها لا تشكل إلا جزءاً يسيراً من موارد العباسيين. بل أن غاياتها كانت بالأساس سياسية خالصة. وان كان هذا من الناحية العملية لا يعني خضوع الامبراطورية البيزنطية لسيطرة وإدارة واشراف الدولة العباسية، فالامبراطورية كانت مستقلة في شؤونها الداخلية والخارجية. وهذه الجزية كانت تمثل حالة تفوق الجانب العباسي على الجانب البيزنطي، وان ميزان القوى هو لصالحهم، تذكر العدو ودوماً بضعفه، مما يحول دون عدوان. كما أن هذا الامر يؤكد هيبة الدولة وقوتها عند مواطنيها.

الهوامش

١. ابن منظور، ٤/ ٣٧٠.

٢. المصدر السابق، ٢/ ٤٦٤ - ٤٦٥.

٣. يونس عبد الحميد السامرائي، ١١.

٤. رسل الملوك، ١١

٥. المصدر السابق، ١١، ٢٠.

٦. المصدر السابق، ١٢، ١٣.

٧. المصدر السابق، ١٥.

٨. المصدر السابق، ١٩.

٩. المصدر السابق، ٩.

١٠. المصدر السابق، ٧ - ٨.

١١. المصدر السابق، ١١، ٢٢ - ٢٣.

١٢. ابراهيم أحمد العدوي، ٢٤.

١٣. ابن الفقيه، ١٣٧.

١٤. Diehl, p. ٦٦.

١٥. ابن الفراء، ٣٩؛ العيون والحدائق، ٣/ ٢٦٦.

١٦. الطبري، ١٨/ ٣٢١؛ ابن العبري، ٣٦.

١٧. Bury, P. ٢٥٦.

١٨. الخراج، ١٨٨

١٩. المصدر السابق، ١٨٨ - ١٨٩.

٢٠. شرح كتاب السير الكبير، ١/ ٢٩٦.

٢١. المصدر السابق، ٢/ ٥١٥.

٢٢. الطبري، ٩/ ٦٩.

٢٣. الشيباني، ٢/ ٥١٦.

٢٤. المصدر السابق، ٢/ ٥١٧.

٢٥. المصدر السابق، ٢/ ٥١٧ - ٥١٨.

٢٦. المصدر السابق، ٢/ ٥١٩.

٢٧. ابن الفراء، ٣١ - ٣٢؛ الحصري، ١/ ٢٥٣.

٢٨. ابن الفراء، ٣٥.

٢٩. العدوي، ٥٤ - ٥٥.

٣٠. أنظر مثلاً: ابن بكار، ٦٨ - ٦٩؛ ابن الفراء، ٣٩؛ الجهشياري، ١٣٢؛ البغدادي، ١/ ٩١ - ٩٢

٣١. الطبري، ٩/ ٢١٩.

٣٢. ابن الفقيه، ١٣٧.

٣٣. الطبري، ٩/ ٢١٩ - ٢٢٠.

٣٤. المصدر السابق، ٩/ ٢٢٠.

٣٥. المصدر السابق، ٩/ ٢١٩.

٣٦. المصدر السابق، ٩/ ٢٢٠.

٣٧. ابن الفقيه، ١٣٨.

٣٨. ابن الفراء، ٤٨.

٣٩. العدوي، ٥٤.

٤٠. ابن الفراء، ٣٢ - ٣٣.

٤١. مختصر كتاب البلدان، ١٣٧ - ١٣٨.

٤٢. المصدر السابق، ١٣٨.

٤٣. الطبري، ٩/ ٢١٩ - ٢٢٠؛ ابن الفقيه، ١٣٧ - ١٣٨.

٤٤. Bura , P. ٢٥٦.

٤٥. أنظر: اليعقوبي، ٣/ ٢٠٥، ٢٠٩، ٢١٥؛ البلاذري، ٢٢٨؛ الطبري، ٨/ ٤٦، ١٥٢، ٦٢٥، ٦٢٩ - ٦٣٠؛ ابن اكثم، ٨/ ٣٣٥ - ٣٣٦؛ المسعودي، ٢/ ٤٥٥ - ٤٥٦؛ العيون والحدائق، ٣/ ٣٧٥؛ Bury , p. ٢٦٦

٤٦. أنظر: ابن خياط، ٢/ ٣٧١؛ الطبري، ٩/ ٢١٣، ٢١٩، ٢٤١؛ ابن الفراء، ٣٤ - ٣٥؛ ابن العبري، ٣٦ - ٣٧؛ فازيليف، ١٥٦؛ Bury, PP. ٢٧٣ - ٢٧٤

٤٧. الطبري، ٨/ ٣٠٧ - ٣٠٨.

٤٨. ابن الفقيه، ١٣٧؛ ابن الفراء، ٤٤؛ ابن العبري، ٣٧.

٤٩. الطبري، ٨/ ٦٢٩.

٥٠. ابن خرداذبة، ١٠٦ - ١٠٧.

٥١. البغدادي، ١/ ٩١؛ Bury, p. ٢٥٦.

٥٢. احمد زكي صفوت، ٢/ ٢٥٢ - ٣٢٤.

٥٣. الطبري، ٨/ ١٥٢ - ١٥٣.

٥٤. المصدر السابق، ٨/ ٦٢٥.

٥٥. المصدر السابق، ٨/ ٣٢١.

٥٦. احمد زكي صفوت، ٢/ ٢٥٢ - ٣٢٤.

٥٧. الطبري، ٨/ ٦٢٩.

٥٨. المصدر السابق، ٨/ ٦٢٩ - ٦٣٠.

٥٩. ابن العبري، ٣٦ - ٣٧.

٦٠. الطبري، ٨/ ١٥٢ - ١٥٣.

٦١. موفق سالم الجوادي، ٢٤١ - ٢٤٢.

٦٢. الطبري، ٨/ ٣٠٨، ٣٢١ - ٣٢٢؛ وعن ثيوفانس أنظر: canard, p. ٣٧٤.

المصادر والمراجع

١ـ ابن اكثم الكوفي، كتاب الفتوح (حيدر آباد: ١٩٧٥).

٢ـ ابن بكار، الاخبار الموفقيات، تحقيق: سامي مكي العاني (بغداد: ١٩٧٢).

٣ـ ابن خرداذبة، المسالك والممالك، مصور باوفسيت مكتبة المثنى عن طبعة بريل: ١٨٨٩.

٤ـ ابن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق: سهيل زكار (دمشق: ١٩٦٨)

٥ـ ابن العبري، تاريخ الدول السرياني، تحقيق: اسحاق أرملة، مجلة المشرق (بيروت: ١٩٥١).

٦ـ ابي الفراء، رسل الملوك، تحقيق: صلاح الدين المنجد (القاهرة: ١٩٤٧)

٧ـ ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، مصور باوفسيت مكتبة المثنى عن طبعة ليدن ١٨٨٥.

٨ـ ابن منظور، لسان العرب (بيروت: ١٩٥٦).

٩ـ أبو يوسف، الخراج (القاهرة: ١٣٨٢هـ).

١٠ـ البغدادي، تاريخ بغداد (بيروت: د/ ت).

١١ـ البلاذري، فتوح البلدان، تحقيق: صلاح الدين المنجد (القاهرة، ١٩٥٦).

١٢ـ الجهشياري، الوزراء والكتاب، تحقيق: مصطفى السقا (القاهرة: ١٩٣٨).

١٣ـ الحصري، زهر الاداب وثمر الالباب، تحقيق: زكي مبارك (القاهرة: ١٩٢٩).

١٤ـ الشيباني، شرح كتاب السير الكبير، تحقيق: صلاح الدين المنجد (القاهرة: ١٩٥٧ ـ ١٩٥٨).

١٥ـ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم (القاهرة، ١٩٦١ ـ ١٩٦٩).

١٦ـ المسعودي، مروج الذهب (بيروت: ١٩٨٤).

١٧ـ مؤلف مجهول، العيون والحدائق، مصور باوفسيت مكتبة المثنى عن طبعة ليدن: ١٨٧١.

١٨ـ اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، تحقيق: محمد صادق بحر العلوم (النجف: ١٩٧٣).

١٩ـ احمد زكي صفوت، جمهرة رسائل العرب (القاهرة: ١٩٣٧).

٢٠ـ ابراهيم احمد العدوي، السفارات الاسلامية الى اوربا في العصور الوسطى (القاهرة: ١٩٥٧).

٢١ـ فازيليف، العرب والروم، ترجمة: محمد عبد الهادي شعيرة (القاهرة: د/ ت).

٢٢ـ موفق سالم الجوادي، العلاقات العباسية البيزنطية في العصر العباسي الاول، رسالة ماجستير غير منشورة.

٢٣ـ يونس عبد الحميد السامرائي، السفارات في التاريخ الاسلامي حتى قيام الدولة العباسية، رسالة ماجستير غير منشورة.

٢٤- Bury , Ahistory of the Eastern Roman Empire, (London: ١٩١٢).

٢٥- Canard, La Prise dHeraclee et Les relations enter Harun AR - Rashid et L`Empereur Nicph - ore. Byzantion , ٣٢ (١٩٦٢) PP. ٣٤٥ - ٣٧٩.

٢٦- Diehl , Byzantium : Greatness and Decline , translated by Naomi Walford, (New Brunswick: ١٩٥٧.